رحيل العالم البحَّاثة الأديب

الدكتور محمد شفيق البَيطار

رحم الله أخانا الكبير والصديق الحبيب، البحَّاثة المحقِّق والأديب المبدع

الأستاذ الدكتور محمد شفيق البَيطار

أستاذ الأدب الجاهلي والعَروض في كلية الآداب بجامعة دمشق، وعضو مجمع اللغة العربية.

والشاعر المبدع الذي كتب عشرات الأناشيد لبرامج الأطفال، وأشرف عليها لغةً وتربية.

ابن محلَّة الشمَّاعين في حيِّ الشاغور بدمشق، المولود في بلدة رأس المعرَّة من يَبْرُود عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

الذي وافته المنية في هذا اليوم الثلاثاء ٢ جُمادى الآخرة ١٤٤٦هـ الموافق ٣ / ١٢/ ٢٠٢٤م، في مستشفى المواساة بدمشق، بعد إصابته بنَزْف دماغي صباح السبت ٢١ من جُمادى الأولى ١٤٤٦هـ الموافق ٢٣/ ١١/ ٢٠٢٤م.

ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا سبحانه

إن لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل

وإنا لله وإنا إليه راجعون

عرفتُ الأخ الحبيب الفاضل شفيق البَيطار بعد حصوله على شهادة (ماجستير) من كلية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٩٢، بمرتبة امتياز، عن رسالته (شعر حُمَيد بن ثَوْر الهِلالي جمعًا ودراسة)، بإشراف أستاذنا الجليل العلامة الدكتور عبد الحفيظ السطلي.

وكنت يومئذٍ حديثَ عهد بالالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، لقيتُه أول مرَّة في مناقشة إحدى الرسائل الجامعية، بمدرَّج شفيق جبري.
ومن يومئذ توثقت الصِّلة بيننا، وكان شابًّا لطيفًا حَيِيًّا، دَمِثًا حليمًا، رَزينًا عصاميًّا، جادًّا في الإقبال على العلم والمكتبة العربية، محبًّا للُّغة والشعر القديم، بارًّا بأساتذته وإخوانه، مع جوانبَ من الألمعية في شخصيته العلمية والإنسانية، وكلُّ جانبٍ منها حَقيقٌ بأن يُفرَدَ بالتبيان والكتابة عنه باستفاضة.

وإلى عمله معيدًا في كلية الآداب حينئذٍ كان يعمل خطَّاطًا؛ يخطُّ لوحات المحالِّ والمَتاجر ليحيا حياة كَفاف من كدِّ يمينه، مستغنيًا بموهبته عن سؤال الناس! ثم فُتحت له أبوابٌ من الرزق الكريم بتوظيف موهبته الشعرية في كتابة الأناشيد وشارات المسلسلات والأفلام لبرامج الأطفال، فكتب عشَرات منها لقناة (سبيس تون)، ومثلها لبرنامج (مدينة المعلومات)، وبرنامج (بيتنا العربي) من إنتاج مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي.

ثم صِرتُ أتردَّد إليه في بيته المتواضع بحيِّ الدُّويلعة، في كل يوم جمعة، نحضُر معًا خطبة الجمعة والدرسَ بعدها في المسجد القريب منه، لدى خطيبٍ كان حبيبًا إليه وأثيرًا لديه، ثم أسعد بمجالسته ساعة ثم أمضي. وقد انتفعت في مجالسنا تلك بعلمه وخُلقه وكريم شمائله، وكنت أُطلعه على بعض ما أعمل في تصحيحه يومئذٍ من كتب لبعض دور النشر، فكان يُسَرُّ بعملي ويثني عليه، ثم نجهد معًا في مراجعة ما كنت أستصعبه أو أتوقف فيه، فاستفدنا واستمتعنا في تحقيق المسائل، والوقوف على وجه الصواب فيها.

انتفع البَيطار بعدد من كبار أساتذتنا في مقدمتهم الدكتور عبد الحفيظ السطلي، الذي أشرف عليه أيضًا في أطروحة الدكتوراه التي نالها عام ١٩٩٥ بمرتبة الشرف، وموضوعها (شعر

قبيلة كَلْب بن وَبْرة جمعًا ودراسة)، وكنت ممَّن حضر مناقشته التي جَلا فيها عن عالم أصيل، ومحقِّق بارع حاذق.

وتحققت فيه فِراسةُ أستاذنا السطلي؛ فيما أخرج بعدُ من آثار وحقَّق من أسفار، وفي نهوضه بأمانة التعليم والتربية، فكان بحقٍّ نعمَ المعلمُ القدوة، بجِدِّه ونُصحه وبَسْمَته التي لا تكاد تفارق مُحيَّاه، على مدار ربع قرن، وقد أجمعت كلمة طلابه على الثناء عليه، والاعتراف بأياديه وفضله.

كنت ألحُّ عليه في السُّنيَّات الأخيرة أن يزوِّدَني بسيرة ذاتية موسَّعة، يضمِّنها بعض ذكرياته وأخباره مع أساتيذنا، فكان يقابل إلحاحي دومًا بالاعتذار، ويدفعه بتواضعه المعهود!

ثم رأيت أن أستدرجه بأَخَرة بإرسال أسئلة إليه بين حين وآخر عن صِلاته ببعض الأساتذة والعلماء، فكان يجيب بأريحية، فاستخرجت من أجوبته أخبارًا وآراءً مفيدة.

● سألته عن صلته بشيخ العربية العلامة أحمد راتب النفاخ، فأخبرني أنه لم يلقَه سوى مرَّة واحدة، في مَجمَع اللغة العربية بدمشق، في غرفة الأستاذ مأمون الصاغرجي أمين سرِّ مجلة المجمع، وكان شفيق حينئذ يقدِّم إلى المجلة تحقيقَه لميمية حُمَيد بن ثور بشرح الأصمعي، للنشر فيها.

وسأله النفاخ عن مُشرفه في رسالة الماجستير، فأخبره بأنه السطلي.

فقال النفاخ: هذا الرجل عالمٌ شريف، ولذلك يحاربونه.

وعقَّب البيطار قائلًا: ثم أخبرت الدكتور السطلي بعد وفاة النفاخ بقوله، فبَرَقَت عيناه سرورًا.

● وسألته عن أهمِّ من انتفع بهم من الأساتيذ وخلَّفوا في نفسه أثرًا فأجاب:

الذين أفدتُّ منهم حقًّا في الجامعة وخارجها:

- الدكتور السطلي: منهجًا وتحقيقًا وعلمًا.

- والأستاذ عاصم بهجة البَيطار [ولا صلةَ قرابة بينه وبين أخينا شفيق، فهما من أسرتين مختلفتين]: درَّسني في السنة الأولى، وكنت أحضُر محاضراته الصباحية والمسائية المخصَّصة للطلاب الموظفين، والمحاضرات التي سمَّاها (ما يطلبه المستمعون)، فأفادني ذلك كثيرًا.

- والدكتور رضوان الداية: في الاطِّلاع على المكتبة العربية، والتدرُّب على التحقيق، وعلم العَروض والقافية، بملازمتي له سبع سنوات في مكتبته.

- والدكتور علي أبو زيد: بتوجيهه لي، ودلالتي على الكتب، وقراءته للدراسة من رسالة الماجستير بطلب من الدكتور السطلي. فضلًا عن المودَّة بيننا والمودَّة بين والدَيه ووالدَيَّ. وهؤلاء الثلاثة (السطلي، والداية، وأبو زيد) لهم عليَّ فضل كبير.

- والدكتور مازن المبارك: درَّسني في السنة الثالثة (الأدوات النحوية).

- والدكتور وَهْب رومية: درَّسني في سنة الدبلوم.

- ودرَّسني آخرون ارتحت إلى معظمهم، منهم: الدكتور عبد الكريم الأشتر، والدكتورة عزيزة مُرَيدِن، والدكتورة ليلى الصبَّاغ من قسم التاريخ في السنة الرابعة، والدكتور حسام الخطيب، والدكتور عبد النبي اصطيف.

- والأستاذ محمد علي حمد الله: انتفعت بمجالسته كثيرًا، لم يدرِّسني في الجامعة، ولكن كانت بيننا وبينه مودَّة، وزرته مرَّات في منزله في التلِّ، وخرجنا معًا للتنزُّه صحبة الإخوة أحمد صوَّان، وأحمد نتُّوف وغيرهما. ودعوتهم لرحلة إلى جُرد رأس المعرَّة البلدة التي وُلدتُّ فيها فكان سروره عظيمًا.

وبعد، فقد كنت أودُّ أن أكتب عن أخينا الحبيب النبيل الدكتور شفيق البَيطار غير ما كتبت، بيدَ أن نفسي المشعَّثة لا تطاوعني، ولا تعينني على أن أوفيَه بعض حقِّه!

تغمَّده الباري برحمته وعفوه

وجعل ما ابتلاه به في أيامه الأخيرة كفَّارة ورفعة

وأحسن عزاءنا وعزاء أسرته وإخوانه وطلَّابه وأحبابه فيه

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأدعو أساتذته الكرام، وإخوانه وزملاءه، وطلابه وأحبابه، أن يخصُّوه بمقالات ننشرها لهم في شبكة الألوكة؛ رفعًا لذكره، وأداءً لحقِّه، ووفاءً لنُبله، واستجلابًا للدعوات له.

ودونكم رابطَ سيرته في الموسوعة الحرَّة (ويكيبيديا):

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%B4%D9%81%D9%8A%D9%82_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D8%B1

ورابطَ مرئية عند تقليده الشارة المجمعية في حفل استقباله عضوًا في مجمع دمشق:

https://www.youtube.com/watch?v=a5at3WCDm7g

كتبه

أبو أحمد المَيداني

أيمن بن أحمد ذو الغنى

الرياض ثاني جُمادى الآخرة ١٤٤٦